بقلم: مصطفى لطفي المنفلوطي .. أفضل ما سمعتُ في باب المروءة والإحسان أنَّ امرأةً بائسةً وقفت ليلة عيد من الأعياد بحانوت تماثيل في باريس يطوِّقو الناس في تلك الليلة لابتياع اللعب لأطفالهم الصغار، بل لأنها كانت تنظر إليو بعين ولدنا الصغير الذي تركتو في منزلها ينتظر عودتها إليو بلعبة العيد، كما وعدتو، فأخذت تساوم صاحب الحانوت فيو ساعة، والرجل يغالي بو مغالاة شديدة، فساقتها الضرورة التي لا يقدِّرنا إلاّ من حمل بين جنبيو قلباً كقلب الأم، ولا يشعر بمكانها، ثم رجعتْ أدراجها وقلبها يخفق في آن واحد خفقتين مختلفتين: خفقةَ الخوف من عاقبة فِعلتها، ثم تركها وشأنها، وذنب إلى مخفر الشرطة فجاء منو بجنديين للقبض عليها، وصعدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها، ففاجأوا وني جالسة بين يدي ولدنا تنظر إلى فرحو وابتهاجو بتمثالو نظرات الغبطة والسرور، وبجم الرجل على الولد فانتزع التمثال من يده، فصرخ الولد صرخةً عظمى، لا على التمثال الذي انتزع منو، بل على أمو المرتعدة بين يديو، فانتفض انتفاضةً شديدةً، وصعب عليو أن يترك نذه الأسرة الصغي رة المسكينة حزينةً منكوبةً في اليوم الذي يفرح فيو الناس جميعً ا، فإني لا أبيعُ نذا النوعَ من التماثيل، فشكرت لو فض لَو ومروءتو، ولم يفارقهما حتى أسدى إليهما من النعم ما جعلَ عيدنما أسعدَ وأنْناَ ممّا كانا يظنان. ولأولادنم اللعب والتماثيل، ثم ناموا ليلتهم نوماً نادئاً مطمئنا تتطاير فيو الأحلام الجميلة حول أسرتهم، يئنون في فراشهم أنيناً يتصدع لو القلب، ويذوب لو الصخر، حزناً على أولادنم الواقفين بين أيديهم، يسألونهم بألسنتهم وأعينهم: ماذا أعدوا لهم في نذا اليوم من ثياب يفاخرون بها أندادنم، ولعب جميلة يزينون بها مناضدنم؟ فيعللونهم بوعود يعلمون أنهم لا يستطيعون الوفاء بها. فهل لأولئك السعداء أن يمدُّوا إلى نؤلاء الأشقياء يد البرِّ والمعروف، إنَّ رجلًا يؤمنُ بالله ورسلو، ويحمل بين جنبيو قل بًا يخفق بالرحمة والحنان ، في طريقو إلى معبده، أو منصرفو من زياراتو، دامعة العين أن تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلاً من أثوابها وصواحبها أن تقع أنظارننَّ على بؤسها وفقرنا، فلا يجد بدا من أن يدفع عن نفسو ذلك الألم بالحنوِّ عليها، وعلى بؤسها ومتربتها، لأنو يعلم أن جميع ما اجتمع لو من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبو، عندما يمسح بيده تلك الدمعة المُترقرقة في عينيها.

lakhasly.com © تم تلخيص النص بواسطة موقع لخصلي